تشكيل المكان في "فتوح الشام" و"فتوح إفريقية" لمحمد بن عمر الواقدي

أ/ أسماء غجاتي
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة محمد بوضياف، المسيلة

ملخص:

تمثل المغازي أحد مكونات السرد الشعبي، وتعد من أهم الأعمال الأدبية في نصوص الأدب الشعبي العربي، تتناول وقائع الفتوحات الإسلامية وبطولات الفاتحين، كالإمام علي بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر.

لقد اخترقت هذه النصوص الواقع المحكي عنه، حيث انطلقت من المصدر التاريخي إلى عوالم عجائبية وأحداث لا منطقية، ممّا أغرقها في التخييلية أكثر من الوقائعية. ثم إنّ المكان من بين عناصر السرد التي استثمرها الراوي واستغلها إلى أقصى الحدود في تكريس المفارقة بين الواقعي و اللاواقعي، بين الحقيقة والخيال.

وعليه سنحاول في هذه الدراسة رصد تشكيل المكان في هذه النصوص، من خلال تتبع تفرعاته، وما ينطوي عليه من أبعاد ودلالات.

الكلمات المفتاحية : المغازي ، المكان ، التاريخ ، التخييل ، العجائبي .

R E S U M E

Les récits de guerre se placent au rang des narrations populaires et se présentent comme l'une des plus importantes œuvres littéraires parmi les textes de la littérature populaire arabe ; en traitant les faits relatifs aux conquêtes islamiques et l'héroïsme des conquérants, à l'exemple de l'Imam Ali ben Abi Taleb et Abdallah ben Djâafar.

Ces textes ont dépassé les faits rapportés dans les récits épiques puisqu'ils sont passés du réel historique à des mondes fantastiques et à des événements contraires à la logique, pour s'immerger plus dans la fantasmagorie que dans l'histoire événementielle.

Les éléments du récit ont été investis par le narrateur et exploités à l'extrême limite pour consacrer l'anachronisme entre le réel et l'irréel, entre l'imagination et la réalité.

A travers cette étude, nous essaierons de mettre en évidence la formation du lieu dans ces récits épiques à travers le suivi de ses ramifications et ce qu'il implique comme dimensions et significations.

Mots-clés :Récits - Lieu - Histoire - Fantasmagorie - Fantastique.

مقدمة:

يعتبر المكان أحد البنى الأساسية المكونة للخطاب السردي "إذ يعد الإطار الذي تنطلق منه الأحداث وتسير فيه الشخصيات، بل يتجاوز كونه إطارا لها أحيانا ليصبح عنصرا حيا فعالا في هذه الأحداث وهذه الشخصيات ومشحونا بدلالات اكتسبها من خلال علاقته بالإنسان "[1].

وبالتالي يقتضي بالضرورة تأسيس مكان – إلى جانب الزمن طبعا – في الخطاب السردي تدور فيه الأحداث، وحدود المكان هنا لا تتجاوز المعنى البسيط، من حيث ارتباطه بالأحداث وسيرورتها، حيث يتحول و يتعدد – خاصة في الأعمال السردية التي تتميز بالتركيب – من خلال تنقل الشخصيات الأساسية عبر الأمكنة و المواقع لتحقق أهدافها.

تتراكم كثير من الدراسات النظرية والنقدية حول المكان، بل إنّ منها الفلسفية و الفنية أيضا، فقد "شغلت قضية المكان اهتمام الفلاسفة القدماء والمحدثون، وأضحت النظرة للمكان في العصر الحديث أكثر تطورا و فاعلية، بسبب التقدم المعرفي و العلمي الذي حرر الإنسان من قيود المكان، وهي في مجملها جهود ترمي إلى تحديد علاقة الإنسان بالمكان و الأشياء ، إلا أنها تمثل الأرضية (المعرفية) لمختلف التصورات الجمالية للمكان في الأدب والفن"[2].

إن اهتمام السرديات بصفة خاصة ببنية الخطاب ومكوناته استدعى بالضرورة اهتماما بالمكان، فتناولته من حيث: المصطلح، والمفهوم، والأهمية، والتقسيم...

ومن أهم المقاربات الكثيرة نجد جهود : غاستون باشلار Gaston Bachelard، و يوري لوتمان Youri Lotman وجوليا كريستيفا Julia Kristeva .

حيث وضع كل واحد منهم تصوره تجاه المكان ، فغاستون باشلار نظر للمكان بناء على علاقة الإنسان به، فيكون إمّا حميميا يلجأ إليه الإنسان بحثا عن الراحة، أو معاديا يرتبط بالصراع و ما ينجر عنه من انفعال و ضغط [3].

وتبعا لهذا التصور ينظر يوري لوتمان إلى ما يمكن أن يؤديه اختلاف أشكال الأمكنة و تنوعها من تقاطب، ذلك أن " المكان هو مجموعة من الأشياء المتجانسة (من الظواهر، أو الحالات أو الوظائف، أو الأشكال المتغيرة ... إلخ تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة ...)"[4]. من خلال هذا يمكن أن نتعامل مع التضاد مهما كانت سمته: يمين / يسار ، فوق / أسفل ، قريب / بعيد،.. وغيرها.

لكن لا يتوقف الأمر عند هذه الحدود الشكلية، بل تعطى لهذه التقاطبات دلالاتها المختلفة المنضوية داخل النص، وما لها من أبعاد اجتماعية، ودينية، وسياسية ...

وبالنسبة لجوليا كريستيفا " فإنها تتحدث في كتابها " النص الروائي " عن الفضاء الجغرافي في الرواية وتجعله مرتبطا بحضارة عصره" [5].

لا يمكن هنا بأي حال أن نغض الطرف عن الدراسات العربية، التي عنيت بالمكان رغم وجود تفاوت وتردد في وجهات النظر على مستوى المصطلح، والمفهوم، والتقسيم أيضا، التي وإن لم تصل إلى وضع رؤية موحدة تجاه المكان كمكون سردي هام ، إلاّ أنّ لها من الأهمية، ما يجعلها تنفتح على أبعاد و تصورات خاصة للمكان.

طبيعة المكان في المغازي:

في نصوص المغازي ونحن نتابع أحداثها نشعر بأنّنا ننتقل عبر فضاءات مؤشر عليها بصورة مباشرة، حيث تتضح أول مرة من خلال العناوين الموجودة ضمن الكتابين و المتعلقة بذكر الفتوح الإسلامية.

فالراوي وهو يتحدث عن مسار الفتوح الإسلامية يعلن مباشرة عن الفضاء المقصود، من المحطة الأولى حيث تبدأ هذه الفتوح إلى بعض الأماكن التي تمر منها الجيوش أو تحدث على مستواها بعض الأحداث خاصة الجانبية منها فتحتضنها بنحو من الأنحاء، و منه يكون انتقال الحدث إلى محطة أخرى أو فضاء آخر ليعرف أيضا حدثا مركزيا آخر يتعلق بمسار الفتح و يكون متمما له ، و هكذا ...

وإنّ "تغيير الأمكنة سيؤدي إلى نقطة تحول حاسمة في الحبكة و بالتالي في تركيب السرد و المنحى الدرامي الذي يتخذه "[6]. والراوي عموما لا يعطي هذه الفضاءات حقها من الوصف الدقيق – إلا في بعض الحالات النادرة – إلاّ أنّنا يمكن أن نمسك ببعض ملامحها، وفق هذا شهد المكان قدرا واسعا وعميقا من تكثيفه و حشده في بؤرة معينة (الشام) و (إفريقية) ممّا يجعله يظهر بمحدوديته في البناء و التصور و الوصف .

والأماكن المعلنة و المسماة على مدى الكتابين ذات طبيعة مرجعية واقعية معروفة (أي لها وجود تاريخي و جغرافي و إنساني و روحي) من مثل : بغداد ، مصر ، اليمن ، فلسطين ، إفريقية ، المدينة المنورة .

كما إنّه رغم هذا التركيز على الأحدث و تطوراتها من خلاله فعل البطل، إلاّ أنّه يبرز تفوق المكان في المغازي من خلال استغلال بنية العنوان، حيث يحمل تفاصيل أخبار المغازي وسيميائيتها، ففي "فتوح الشام" و"فتوح إفريقية" يتبين الإطار العام للمحتوى التاريخي/الديني لهذين الكتابين ، ممّا لا يدعو إلى مجرد الشك برمزيتها الدفينة ولا إمكانية إثارة فكر القارئ إلى عقد المقارنات بين هذه النصوص و نصوص تاريخية أخرى تتحدث عن الفترة نفسها .

ونحن نعلم " أنّ من أبرز وسائل تصوير المكان تسميته ، و لكن التسمية وحدها غير كافية، ولابد في الأحوال كلها من ملاحظة أن المكان في العمل السردي ليس مطابقا " للمكان في الواقع وإن كان مستوحى منه "[7].

ذلك أنّ طبيعة العمل السردي أنّه يقوم على التخييل باستثمار اللغة ، فحتى وإن تمّت تسمية المكان وتحديده جغرافيا وتحقيق المعرفة به، إلاّ أنّها تظل مجرد تسميات تدل على مكان غامض قد يثير الخيال أكثر مما يعطي المعرفة التامة به، ولا أقصد غامض هنا غريب، ولكن يكون مستقلا عن المكان كما هو في الواقع .

"وهو لا يوجد إلا من خلال اللغة فهو فضاء لفظي (Espace verbal) بامتياز ، إنه فضاء لا يوجد سوى من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب"[8].

والأمر نفسه إن كانت التسمية عامة غريبة، إذ إنّ إثارة الخيال هو هدف تسمية المكان و ليس الهدف هو تحقيق المعرفة به.

والراوي في المغازي كثيرا ما يكتفي بالإشارة و التلميح إلى مكان لاهتمامه أكثر بتقديم الأحداث و تطوراتها .

ولكن هذا لا يعني بأن لا وجود لأوصاف حسية (مادية) للمكان في المغازي ، لما لها من تأثير من خلال ترك صورة ذهنية عنه لدى المتلقي ، تجعله يعيش في عالم الحكي ، خاصة إذا كان تركيز التصوير على الأجزاء من خلال العناية بحجومها و أشكالها وألوانها و حركاتها ...

أي أن يكون انتقاء للعناصر و الأوصاف بما يساعد على رؤية ما تسمعه الأذن أو تقرؤه العين .

ومن هنا تتضح قيمة المكان في العمل السردي ، إذ يعتبر عنصرا هاما لجذب هذا المتلقي ، و لكن " تظل للمكان وظيفة أهم، وهي اختراقه و التعامل معه "[9] .

إنّ اختراق المكان ، يعني دخول تجربة جديدة للشخصية، فتتأثر به أو تؤثر فيه، ممّا يؤدي إلى تغيير منحى الحكاية فدخول أبطال المسلمين بجيوشهم إلى البلاد التي ساروا إليها بهدف فتحها هو اختراق لها .

ثمّ إنّ بعض البلاد كانت عصية عليهم من خلال حصونها المغلقة القوية و المحروسة ، لكن اختراق البطل لها بنحو من الأنحاء جعله لا يخضع للمكان بماله من مميزات و خصوصيات ومكونات، ولكن هو الذي أثر فيه بأن فتحه وجعل أهله يدينون بالإسلام أو يدفعون الجزية، وبالتالي باتت هذه الأماكن تابعة لأماكن أخرى تدين بالإسلام بعد تضحيات كبيرة، وبصعوبة بالغة، وهذا ما يعكس تقابل قطبين أو تباين مستويين للمكان، بحسب القوة التي يحتويها إن هي قوة شريرة أو قوة خيّرة .

فجيش المسلمين خرج ليجاهد في سبيل الله و في سبيل نشر دين الإسلام، ولم يبق في مواقعه مدافعا، بل إنّه قدم من مركز الخلافة الإسلامية و اخترق قلاع الفرس و الروم ...، وبالتالي تتثبت القيم المثلى، وتتحدد مستويات المفاهيم .

إنّ مثل هذا الاختراق الذي نجده في المغازي – وهي الحاملة للمعارك والحروب التي تستدعي بالضرورة احتراقا مهما كانت طبيعته فتؤثر فيه و تمنحه قيمة ما – نجده في كل الأشكال السردية القديمة منها خاصة ،كالأساطير و الملاحم و الحكايات الشعبية وقصص الرحالة ...

وبتطور الحوادث السردية في الغزوة زمنيا ، يتأكد عدم تنازل الشخصية المحورية عن شروط تشكيلها المكاني، حيث تظهر مستجدات حكائية ضمن مسار الأحداث عملت على زيادة حضور سلطة المكان من خلال معطيات حدثية /شخصية، تساعد في كل مرة على إسدال الستار في اللقطة الختامية على الشخصيات المسلمة من خلال إبراز علاقتها بهذه الأمكنة الجديدة:

– "أقام المسلمون على رأس عين [هكذا] شهرا و عمل بيعة نسطوريا جامعا وصلوا فيه و بنوا الكنائس مساجد وترك عرفجة بن مازن العامري عليها واليا ومعه مائة فارس و أخذ مال الرها و

اسم المكان حقيقي / تخييلي		المكان التابع
رأس العين (ح)	أرزن (ح)	الكنائس
الجزيرة (ح)	كيفا (ح)	المساجد / الجوامع
حران (ح)	الموزر (ت)	حصون
الرها (ح)	الهتاج (ت)	موانع
سروج (ح)	البيرت (ت)	البلاد
السخن (ت)		عسكر
أكساس (ت)		الأقاليم
العمق (ح)		المعاقل
نينوى (ح)		الطريق
الهكارية (ح)		النهر
عين عسكرا (ح)		الأرض
أخلاط (ح)		منازل
طاريون (ت)		الديار
سناستة (ت)		سرادق
جيزان (ت)		المضارب
المعدن (ت)		مرج السور
أبزون (ت)		الجنة / النار

قف (ح)	الجبال / التلال / الرمال /ميدان
أنظر (ت)	
ايدليس (ت)	

كفرتوتا فأخرج منه الخمس و أرسله بعد عبد الله بن جعفر مع سلامة بن الأحوص ومعه خمسون فارسا "[10] .

– "وملك المسلمون المدينة وأقاموا بها إلى أن بنى فيها عقبة مسجدا و صلوا فيها الجمعة الأولى و لما قضوا صلاتهم و خرجوا اجتمعوا عند الأمير عقبة وتشاوروا أين يسيرون"[11].

فالمنتصر وهو جيش المسلمين أعطى لنفسه الحق في المكان باعتباره أصبح تابعا لكل الأمكنة التي دانت للإسلام ، لذلك في نهاية كل غزوة غالبا ما نجد الخاتمة نفسها ، بأن يبنى مسجد ، و يختار وال و قاض ، و تقسم الغنائم كلٌّ و نسبته .

ثمّ إنه لاعتبارات تتعلق بمسار المسلمين تجاه هذه البلدان لفتحها ، يمكن أن تتحدد الأمكنة من خلال مبدأ المسير (مكان الانطلاق) ، إلى المكان المقصود الذي يعتبر مكان تحقيق رغبة البطل و من معه .

كما تتضح الأماكن التي مرَّ بها المسلمون حتّى وصلوا إلى المكان المقصود .

وإنّ اللافت للنظر أنّ المغازي تحوي عددا لا متناهي من الأمكنة، بل إنّنا في الغزوة الواحدة نجد حشدا كبيرا من الأماكن سواء الحقيقية أو التخييلية .

ففي ذكر فتوح قلعة رأس العين ، نجد أنّه في أقل من صفحتين (130 – 131) من كتاب " فتوح الشام " في جزئه الثاني نحصي خمسة و عشرون مكانا جغرافيا مهما كانت طبيعته حقيقية أو تخييلية ، إلى جانب الأماكن التابعة لها، و يظهر ذلك في الجدول التالي كما وردت مرتبة في الصفحتين (130 – 131) :

يتجلى من خلال هذه العينة ظاهرة تراكم الأماكن التي نجدها على طول النصوص ، و يظهر منهما الحقيقي (ح) ، و التخييلي (ت) ، ثمّ إنّ هناك حضور كبير لأسماء الأماكن التي تنتشر ضمن أو حوالي البلدان الكبرى التي اتجه المسلمون لفتحها ، أو يمكن أن يلجأ إليها الطرف الآخر طلبا للحماية أو للوحدة حتّى تسهل مواجهة المسلمين ، لذلك نجد في كثير من الأحيان تكثيفا لذكر الأماكن ، سواء بجمعها في عبارة واحدة أو متفردة حيث تختلف طبيعتها من دول كبرى إلى مدن

أو قرى ، أو جبال ، أو تلال ، أو بحار ، أو أنهار ... ممّا يوحي باليقينية و من ثمّ يحدث الإيهام بالواقع ، ما دام هناك (زج) لأسماء أماكن غير موجودة أصلا بين أسماء الأماكن المرجعية .

وضمن كل هذا نجد أنّ هناك أماكن جغرافية حقيقية من خلال – على الأقل – تحديد أسمائها ، كما توجد أماكن تخييلية يصعب تأكيد مرجعيتها (الاسم ، الصفة) أو حتى الوجود على الخريطة الجغرافية .

كما إنّ هذه المحكيات تطعم بعض الأمكنة بالتعجيب ، و هذا أمر طبيعي لأنّنا نتعامل مع نصوص جمالية يمكن أن ينفلت فيها المكان من الأشكال الهندسية المعروفة إلى أماكن متنوعة .

وإنّ الأمر يتعلق بما يمكن أن يختاره الراوي من الأماكن ليؤطرها و يتموضع على مسافة منها، ليصفها بطريقته الخاصة ، وبما يخدم قناعاته الجمالية و الفكرية ، و ذلك بما يمكن أن يستثمره من اللغة من خلال الكلمات و البلاغة .

1– الاماكن المرجعية :

و هي " كل الفضاءات التي يمكننا العثور على موقع معين لها إما في الواقع ، أو في أحد المصنفات الجغرافية أو التاريخية القديمة"[12].

ولا تأخذ هذه الأماكن من هذه المصنفات إلا اسمها ، أمّا ما كان من موقعها المضبوط، و مساحتها، وضيقها، واتساعها، وطولها، وعرضها، وحدودها ... فلا تحديد دقيق، ولكن يمكن أن نجد في بعض الأحيان الإشارة إلى الاتجاه شرقا أو غربا أو شمالا أو جنوبا .

ثمّ إنّ الصراع الذي ترصده المغازي هو صراع من أجل هذا المكان ، بل إنّ الأصل في قيام مثل هذه النصوص هو إظهار كيفيات فتح هذا المكان و امتلاكه ، فبعد الصلح أو الانتصار يستسلم المكان و يكون ملكية خاصة .

كما إنّه في سبيل استثمار الراوي في العديد من المواد التاريخية التي تساعد على مطابقة الواقع بنحو من الأنحاء أو على الأقل بعضا منه ، فإنّ المكان من ضمن هذه المواد ، حيث تبرز بصفة مكثفة أماكن مرجعية من خلال أسمائها .

وقد أشير من قبل إلى ما للاسم من أهمية في تبيّن و تميز المكان ، حتّى إن لم يكن توصيف له ، من خلال الموقع ، أو الحدود ، أو المساحة ، أو حتى التاريخ .

وإنّ هذا العدد اللامتناهي من الأماكن المرجعية التي تجتمع في نصوص المغازي ، تمثل دولا كبرى من روما و فارس التي كانت تحتل مساحات هامة من العالم حيث نجدها تتضمن أيضا أمكنة مرجعية كالعراق ، و مصر ، و اليمن و فلسطين ...

ويمكن من خلال رصد حركة جيش المسلمين و كذلك الاتصالات التي تحدث بينه و بين الطرف الآخر (الكافر) ، أو بين المنتمين لكل طرف ، قلت يمكن رصد الكثير من الأمكنة التي تنتمي إليها أي التابعة لها كأسماء الجبال ، و الوديان ، و الأنهار ، و البحار ، و المدن ، و الممالك ، من مثل : (القسطنطينية ، دمشق ، بغداد ، الاسكندرية ، آمد ، رأس العين ، ماردين ، قسنطينة ، سطيف ، القيروان ، تلمسان ، المغرب ، المدينة المنورة ، جبل مارون ، ديار بكر ، أرض ربيعة ، أرمينية ، الموصل ، نينوى ، الدجلة ، أزقة المدينة ، مرج حلوان ، إيوان كسرى ، ساحل الرملة ...) .

و هي مدن معروفة بأسمائها و مواقعها ، حتّى و إن خلناها في بعض الأحيان لا وجود لها – على الأقل من خلال التسمية إن كانت مغرقة في القدم أو من خلال الوصف ، أو ربما بسبب عدم إلمام المتلقي بمعارف سابقة عن مثل هذه الأماكن – ، و لكن بالرجوع إلى مرجعياتها الجغرافية تتأكد من حقيقتها .

و تظل أعين من ينتمي لهذا المكان مشدودة إلى الأمكنة الأخرى المتعلقة بالآخر، حيث اتجه جيش المسلمين ليفتحه و ينشر الإسلام .

و يبقى التواصل مستمرا مع هذا المركز الذي يوجد فيه الخليفة (أبو بكرالصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ...) ، من خلال إرسال الرسائل ، و طلب إمدادات الجيش ، كما يرجع إليه في كل صغيرة و كبيرة تتعلق باتجاه المسير ، أو كيفية قسمة الغنائم ، أو التعامل مع بعض مشاكل كاستعصاء فتح هذه البلاد أو ما شابه .

لذلك يعتبر مكان مركزي حقيقي له قيمة رمزية و أيضا ذهنية ، سواء في " فتوح الشام " أو " فتوح إفريقية " ، لأنه يعتبر نقطة انطلاق رغم أنّ المركز قد يتغير بفعل الانتقال إلى أماكن أخرى قد تكون أقرب إلى الأماكن المراد فتحها (مثل مصر بالنسبة لإفريقية) .

لأنّه من المنطق أنّ في التاريخ أماكن مركزية أخرى غير قلب الجزيرة العربية ، انتقلت إليها الخلافة ، كبغداد ، و دمشق ، و مصر ، و بالتالي ننتظر أن يكون كل مكان من هذه الأمكنة بوابة للفتوحات الإسلامية التالية التي تكون أقرب إليها .

و على النقيض من هذا الكلام ، فإن المغازي اكتفت بذكر هذا المكان المركزي فقط دون توضيح معالمه ، و ربّما لتعمية هذا المكان قصد يتمثل في جعله قابلا لأن يكون في كل زمان ، حتّى و إن انتقل المركز إلى أماكن أخرى .

ثمّ إنّه حتى و إن لم يذكر في حوار الشخصيات أو سرد الراوي انتقال الشخصيات من و إلى هذا المكان ، فإنّ مجرد ذكر أحد المنتمين إليه ، ينقل لمتلقي ذهنيا إلى هذا المكان بالضبط ، أو حتّى أحد أجزائه كمسجد الرسول – صلى الله عليه و سلم – ، مجلس الخلفاء و الأمراء ... أظن الأمر سهلا بالنسبة للمتلقي الذي يستطيع أن ينظر في جغرافيا المكان و تاريخيته ، من خلال ما تستوعبه المصادر الخاصة بهذه الجوانب .

وحتّى فيما يتعلق ببعض الأماكن التي اتجه إليها المسلمون فاتحين و لم يشر الراوي إلى معالمها الجغرافية و الطبوغرافية ، كإفريقية ، و الاسكندرية ، و العراق و اليمن .

من المهم الإلماح إلى أنّ الكثير من الأماكن المرجعية في المغازي ترتبط من حيث أسمائها و أوصافها بالشخصيات التي تنتمي إليه ، و قد ساهمت في بنائه و تسميته بنحو من النحاء ، حتّى وإن كان المكان مغرقا في القدم .

ترد في كل من " فتوح الشام " بعض النماذج من هذه الحالة ، حيث يتم التقديم لهذه الأماكن التي يلج إليها المسلمون باعتبارها مجالا للأحداث ، و ذلك بحكايات جانبية تفصل في أصل المدن و أسباب تأسيسها ، كمدينة القيروان أول مكان وصله عقبة بن عامر (أمير جيش المسلمين) في إفريقية .

" (قال الواقدي) و سميت القيروان قيروانا لأن العرب أقرت رحلها فيها لأن جيش عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حل بأرضها ، قال الجند لعقبة بن عامر رضي الله عنه أيها الأمير إنا دخلنا أرضا كثيرة العمارة قوية الجيش و جيوشها أقوى من جيوشنا و جيوش الشام و مصر و بلادنا بعيدة منا و معنا من الرجال كثير و ليس لنا مقر تقيم فيه نساؤنا و تحفظ فيه أموالها ، و كانوا في ذلك الوقت في المكان الذي بنيت فيه القيروان ، و قالوا له أين لنا بلدة في هذا الموضع كثير الأشجار

قالوا له نحرقه بالنار و نبني فيه فقال لهم يا قوم ان الوحوش و الهوام و دواب الأرض كثيرة بهذه الأرض و أخاف أن أحرقها بالنار فيحاسبني الله عز و جل عليها " [13].

و تستكمل الحكاية بأن ينادي عقبة بن عامر في آخر النهار الوحوش الساكنة في القيروان لتخرج منه حتّى يحرقها و يتخذها مستقرا للمسلمين ، فلا يتم نداؤه حتّى ترفع الوحوش أولادها في ثلاثة أيام ، و يقوم بحرقها و بناء مدينة القيروان .

و إنّ ذكر هذه الحكاية الخيالية للإجابة عن سؤال لم يطرح أصلا ، إذ إنّ تعريف الواقدي بالقيروان مستقر المسلمين البري ،كان سببا للتفصيل في طريقة بنائها و الاستقرار بها ، ثمّ إنّ حضور الجانب العجائبي بقوة في هذا النص ، له علاقة كبيرة بالمتلقي (مستمعا / قارئا) ، الذي يمكن أن يتلذذ بمثل هذه الحكايات ،كما إنّها تغنيه عن السؤال عن هذا المكان أو طرق الاستقرار به ، و بالتالي كان هدفها معرفي (إخباري) بالدرجة الأولى .

و هي تعتبر حلقة من الحلقات المتسلسلة للأحداث في فتوح إفريقية ، فبعد ذكر حكاية بناء القيروان ، يستمر الراوي مباشرة في ذكر مسار جيش المسلمين لفتح المدن الإفريقية .

و هذه مدينة آمد المعروفة ، لها مرجعيتها التاريخية و الجغرافية ، لكن نجد أنّ أوصافها تجاوزت كل واقعية ، حتّى يبدو هذا التأثير من خلال الشخصيات التي تستقبل حكايات تفسِّر تشكل المدينة ، حيث يُظهر الراوي تعجبها من هذه الحكايات التي تغرق تاريخ هذه المدن في الخيال :

"كان بآمد أخوان شديدا البأس اسم أحدهما بطرس و الآخر يوحنا .. و كان بطرس في شرقي البلد و يوحنا في غربيها ، و كان ليوحنا بنت اسمها رغوة ، و لبطرس بنت اسمها صفورا ، و كل واحد مشغول بما هو فيه ، و يوحنا أراد أن يتزوج فأرسل إلى صاحب دارا و هو مرطاس فزوجه لبنته مريم و حملت من بلد أبيها إليه ، و كانت صاحبة حيلة و مكر ، فلما حصلت بآمد نظرت إلى المدينة و كثرة ما لها و نعمها و تحصن أهلها و سورها و غزارة بساتينها . فقالت لدايتها في السر يا دايتي : ما رأيت أحسن من هذه المدينة و لا أحصن منها و لا أمنع ألا ترين إلى الأعين المخترقة في وسطها و إلى الجبال التي قد درات بها ، تعني سورها الأسود ، فمن بناها على الحقيقة ؟ "[14].

و تأتي الإجابة بكل تفصيل من الداية و هي شخصية ثانوية مجهولة ، حيث تروي حكاية مغرقة في الخيال رغم انّها قابلة للتصديق لمن لا يعرف الحقيقة التاريخية . هذه الحقيقة التي لم تثبت

أصلا ، فياقوت الحموي مثلا لم يذكر شيئا عن تاريخ المكان قبل الفتح الإسلامي الذي يقول أنّه كان سنة عشرين للهجرة [15].

و ربما الاختلاف تفاصيل الحكايات المتداولة بين أفراد الشعب و القريبة من الأساطير أو حتى عدم وجودها أصلا ، بسبب إهمال هذا الجانب من تاريخ المكان ، ثمّ نسبته إلى شخصية غير معروفة من الشعب (الداية) ، و إنّ هذا الأمر من مميزات التراث الشعبي ، و هي أيضا وسيلة يبد الراوي من أجل الإيهام بالواقع من جهة ، و عدم تحمل مسؤولية هذه الأخبار من جهة أخرى .

و قد جاءت إجابة الداية كالآتي : " قالت لها : اعلمي أنّه قد ملك بلاد الروم أجمع من أول بلاد اليونان الى بلاد عمورية ملك يقال له (طيماوس بن أرسالوس ابن ميهاط بن مكلاوكن بن الأصفر بن العيص بن اسحق) و كان أول من بنى بيت الحكمة في بلده رومية الكبرى ، و كان قد فتحت له المطالب و نشر في الأرض العجائب و أنه حدثته بملك الأرض لكثرة المال فانتهى إلى سويقة ، و كان له ولده اسمه اسطنبول فقال لأبيه طيماوس أريد أن أبني لي ههنا مدينة أذكر بها قال يا بني أفعل و أمده بالمال و الرجال فأدار سورا على ستة فراسخ و سماها باسمه و عاش أربع سنين و مات و خلف ولدا اسمه قسطنطين فأتم بناءها فسميت باسمين اصطنبول [هكذا] باسم أبيه و القسطنطينية باسم ابنه و أما أبوه فإنه صار يفتح البلاد حتى وصل إلى ههنا فرأى هذه الأعين و الدجلة فاستحسن المكان فطلب أرباب دولته و كانوا اثنتين و سبعين ملكا و قال قد اخترت أن أبني ههنا مدينة لا يكون على وجه الأرض مثلها و لا أحسن منها و لا أمنع و أريد أن كل واحد منكم يبني لنفسه مدينة و برجا فقالوا جميعا نفعل أيها الملك فركبوا و اختطوا المدينة و شرعوا في بنائها و أتوا بالصناع من أقصى البلاد و اختص كل ملك بمدينة و برج و حمام و كنيسة ، فلما أتموا بناءها مات الملك فسميت آمد لانقضاء أمده و ما زال الملوك يتوارثونها إلى أن انتهت إلى هذين الأخوين بطرس و يوحنا " [16].

و منه يكمل الراوي سرد ما حل بهذين الأخوين و كيف ملكت مريم الدارية (نسبة إلى مدينة دارا مسقط رأسها) هذه المملكة ، و هي احدى الشخصيات المهمة في أحداث الغزوة .

و واضح أنّ الراوي قد فصّل في حكاية تسمية هذا المكان من خلال ذكر تاريخ تشكله .

كما يمكن أن نجد في المغازي ومضات سريعة ضمن حوار الشخصيات ، تشير إلى المكان رابطة إياه باسمه و صفته من مثل :

– " و أما عياض فإنه سار على طريقه التي ورد عليها إلى ارزن الروم و خرج منها إلى أسعرد إلى جبل مارون . (قال الواقدي) كان الذي أسسها السموأل بن عاديا ، و كان قد سبق قبل ذلك الأبلق الفرد من أرض تيماء ، و لما جاء وزير كسرى و طلبه هرب إلى هذه الأرض و بنى له فيها هذا البلد "[17].

– عندما نزل عياض بن غنم على الموصل خرج إليه اهلها بالعدد و السلاح ، " فكر عليهم خالد بجيش الزحف فجعلهم حطاما و لم يكن عليها يومئذ سور يمنع فأخذها بالسيف و نظر إلى نينوى فإذا هي مدينة قد أخذت السهل و الجبل فقال ما هذه ؟ فقيل هذه نينوي ، فقال لعلها مدينة يونس عليه السلام " [18].

– " و قصد بيرحا فصالح اهلها على ربع ما صالح عليه أهل دارا و رحل عنها و كانت بنو اسرائيل تعظمها و تقصد إليها بالنذور ، و كان بانيها حزقيا بن تورخ بن بازيا احد انبياء بني اسرائيل"[19].

– " و كانت البلدة كثيرة البنيان و الأشجار و كانت هذه الأرض تسمى الخضراء لخصبها و حسن منبتها و العرب سموها افريقية " [20].

وجدير بالاهتمام هنا أنّ من خلال المغازي يمكن أن نتعرف على الأماكن المجتمعة أو القريبة من بعضها ، حيث يمكن تتبع مسار الفتوح مرتبة ، فهذا مثلا ذكر فتوح دارا و بيرحا وباعماء كان بعد استكمال فتح رأس العين : " قال و رحل عياض بن غنم من رأس العين ونزل على كفرتوتا [...] و ارتحل منها إلى دارا [...] وارتحل عن دارا و قصد بيرحا [...]"[21]، ومنها إلى نصيبين، ثمّ إلى آمد، بعد أن نزل بقلعة المرأة (ماردين) التي فتحها المسلمون من قبل .

وكذلك الأمر في فتوح إفريقية ففي نهاية كل عزوة يتكرر مشهد اتفاق المسلمين على المكان التالي لفتحه و من المنطق أن يكون من الأماكن المتاخمة :

– " فمنهم من قال إلى شقب النار و منهم من قال تبسة و منهم من قال المعلقة و منهم من قال حيدرة و بينما هم يتفاوضون و إذا بأهل باز و عفري أو (عوف) و كسرى أتوا بالعلوفة طالبين الصلح [...] و عادوا إلى أوطانهم ءامنين [هكذا] مطمئنين و هم يثنون على المسلمين الثناء الجميل و فشا ذكرهم الحسن في تلك الجهات فأقبل أهل القصور و رقادة و مركتيت أو (مركيت) " [22].

– كما يمكن أن نستنتج مواقع الأماكن من خلال حوار الشخصيات أو سرد الراوي و التي تأتي أيضا بطريقة مختصرة من قبيل :

– " و كان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها في وسط البلاد و هي قريبة من الأردن و الشام و السواحل " (23).

– " أيها الناس تعلمون أننا توسطنا بلاد المغرب " (24).

و الأمثلة كثيرة جدا ، حيث يمكن تتبع مسار الشخصيات ، و من ثمّ بيان مواقع الأمكنة ، بل و حتّى خصوصياتها (أرض واسعة ، جبل به عين ...) ، ممّا يوحي إلينا باليقينية من خلال هذه الومضات التي ترد على شكل (بورتريه) .

ثمّ إنّ كثيرا ما نجد الراوي يستعمل صيغة دالة على استمرار وجود المكان و حتّى يربطه باسم شخصية ما من خلال :

– " ان برج القبة مما يلي باب البحر و ذلك أن الاسكندر لما بنى الاسكندرية و سماها باسمه كان الخضر وزيره ، و هو الذي بنى الباب الأخضر و صنع تلك القبة باسمه و رسمه و كان يأوي إليها فصار ذلك الباب مشتهرا به إلى يومنا هذا " (25).

– " و ذهب إلى الاسكندرية و بنى فيها جامعا في الربض ، و هو معروف بجامع عمرو إلى اليوم " (26).

– " فلحق بهم رجل من سكان شقب نار (و هي المسماة الآن بالكاف) " (27).

– " و لما بلغوا جبل الخضر المسمى الان بجبل الحديد " (28) .

و يمكن أن تكون الإشارة إلى استمرار وجود المكان أمرا مرجعيا ، أو حتى وسيلة للتماهي في الواقع و جعل المتلقي يصدق مثل هذه الأخبار .

2– الأماكن التخييلية :

و هي " مختلف الفضاءات التي يصعب الذهاب إلى تأكيد مرجعية محددة لها سواء من حيث اسمها الذي به تتميز أوصفتها التي تنعت بها [...] ، نجدها أقرب ، من جهة محددة ، إلى الفضاءات المرجعية ، و تتصف ببعض صفاتها ، لكنها غير قابلة لأن تحدد مرجعيا " (29) .

و إنّ الراوي يختلق مثل هذه الأماكن لضرورة تتعلق بسيرورة الأحداث ، التي لا نتصور أنّها تكتمل ضمن الأماكن المرجعية فقط ، و لكن من المنطق و خاصة ضمن نصوص المغازي التي تستدعي تصوير كل دقائق الأحداث – أو هذا منطلقها في الأساس – و مسار الشخصيات عبر الأمكنة حتّى و إن كانت ذات صفات عامة .

ففي " فتوح إفريقية " لما اتجه جيش عقبة بن عامر إلى إفريقية فاتحا نجد قول الراوي : " ثمّ قال لهم عقبة سيروا على بركة الله فودعوه هو وسيدنا علي و رحلوا يجدون السير في الفيافي و القفار و متون الجبال و بطون الأودية إلى أن وصلوا أرض افريقية و كان أول نزولهم القيروان " [30] .

و بالتالي فإنّ أماكن مثل : الجبل ، الواد ، دير يقيم فيه قس ، بلاد ، مسجد بناه المسلمون ، كنيسة ، تل ، ميدان ، أرض واسعة ، منزل ، نهر ، طريق ، قرية من القرى ، ...هي من الأماكن التي يتكرر ذكرها في الفتوح ، و هي أماكن عامة ، لم تتم تسميتها ، و لم تحدّد و لم تعيّن ، و هي موجودة و لكن غير معروفة مثلما هو الأمر بالنسبة للأماكن المرجعية .

ثمّ إنّه حتّى و إن تمّت تسميتها من خلال صفة من الصفات ، فإنّها تبقى من اختلاق خيال الراوي ، إذ " إنّ الفضاء يخضع لرؤية الراوي للوجود من خلال اللغة متى ما تجاوزت هذه وظيفتها التواصلية لتصبح إشارية ، تخييلية ، يمكن أن تحيل على عوالم أخرى غير واقعية " [31].

بل هي أماكن يتم تصويرها أو رسمها من خلال اللغة .

و إنّنا نجد الوصف الخيالي للكثير من الأماكن التي ينتقل إليها الأبطال ، أو يشاهدونها في رحلاتهم الجهادية .

ففي ذكر فتح كرسيف يصف الراوي قصر ملكها قائلا :

" و كان هذا اللعين عنده قصر خارج المدينة ملتف بالأغصان ، و كان يخرج إليه في كل عام يتمهرج فيه و كان القصر في نهاية البهاء و الحسن تحيط به الأشجار من كل جهة و هي كلها متكاثفة مشتبكة ببعضها بعضا مختلفة الثمار و بين الأشجار سواقي المياه تجري تحتها و الطيور عليها تغرد بحنين الأصوات و في القصر أنواع الوحوش من غزلان و نعام و غير ذلك مما يسر الناظر و ينشرح منه الخاطر و قد جعل عدو الله في وسطه صهريجا من خمر طوله ستون دراعا و عرضه كذلك و قد ركب فيه أربع يواقيت على قضبان من ذهب تضيء كأنها الشمس (قال) و كان

عدو الله إذا خرج لهذا القصر يأخذ معه مائة ألف رجل لحراسته بالليل و مائة ألف لحراسته بالنهار و هذه وظيفتهم على الدوام و الاستمرار " [32].

فوصف المكان بكل دقائقه و بهذا الإغراق في الخيال قد يكون نزوع إلى الطريقة التقليدية التي تصف المكان الجديد الذي تلج إليه الشخصيات كنوع من تهيئة المتلقي لما سيأتي من أحداث و شخصيات تتفاعل فيه .

كما يمكن أن يكون هذا الحيز النصي كاملا (تقريبا صفحة كاملة) ، مجرد تأمل في فضاء المشهد السردي ، بل هو وصف تقليدي حيث لا ارتباط عضوي له بالأحداث ، إلاّ أنه قد يؤثر من خلال وجود انطلاق الأحداث من السرعة (الصفر) ، أي من الثبات إلى بداية الحركة ، حيث يكون الأمر هنا بيد راوي عليم عارف بكل ما يحيط بالنص و مسيطر عليه بصورة كاملة ، ممّا يسمح له بإيجاد منطلق أو بداية من هذا المشهد الوصفي .

و عندما نقول بداية فليس القصد بالضرورة بداية نص الغزوة في حد ذاتها و لكن قد يتجزأ النص بفعل وجود هذه المشاهد الوصفية فيغدو أجزاء متتابعة .

و على النقيض من هذا قد نجد أنّ وصف البيئة بمكوناتها من الأشياء بصفة دقيقة توثيقية تصويرية و أيضا مباشرة و واضحة ، توهم المتلقي أنّ ما يُحكى له حقيقة و واقع ، و أنّ من صوّر له هذه الأمكنة بذكر التفاصيل قد شاهد فعلا هذا المكان و ارتحل بعينيه عبر أجزائه .

و من ثّم يمكن أن يتعرف على الشخصية التي تنتمي إلى هذا المكان و خلفيتها ، و هذه تتمة ما ذُكر بعد استكمال وصف قصر ملك مدينة كرسيف :

" و كانت ملوك المغرب تهاب سطوته و تخضع له و هو يزعم أن الله أطلعه على الحجر المكرم و كان عالما و له مائة حكيم يحضرون مجلسه و كان جهير الصوت إذا تكلم كأنه الرعد و إذا مر بالشجرة اقتلعها و قوته تعدل قوة مائة رجل يحمل البعير بين يديه و يسير به و له فرس العود رأسه من الذهب و عيناه من الزبرجد الأخضر و أذناه من العاج و أرجله من الفضة و كان وسطه مجوفا فإذا أرد أن يطير به ركبه و حرك لولبه فيطير كالطائر في الهواء و إذا أراد النزول حرك اللولب أيضا فينزل به "[33] .

فوصف المكان يعكس قوة الطرف الكافر ، و نفسيته المنغلقة الظالمة التي تتوق للاعتداء ، كما يمكن أن نضع تقاطعات بينه و بين (قارون) في القصة القرآنية [الآية 81 من سورة القصص]

التي تحكي عن هذا الرجل من قوم موسى عليه السلام ، و قد أنعم الله عليه بخيرات كثيرة من المال الوفير ، فمفاتيح الخزائن التي تضم كنوزه من الذهب و الفضة كان لا يقدر على حملها مجموعة من الرجال الأشداء ، و كان يعيش في بذخ و ترف ، و يلبس اللباس الفاخرة ، و يسكن القصور حيث يتخذ لنفسه الخدم و العبيد بأعداد كثيرة . كما كان يتمادى في الضلال و الغرور و البخل ، إلى أن أتاه جزاء من الله عز و جل بأن أمر الله الأرض أن تبتلع قارون و قصوره و كل أمواله .

ثمّ إن هذه الأوصاف هي إضفاء للصفات الجمالية لهذه الأمكنة التي انتقل إليها المسلمون فاتحين ، و كأنها نافذة مفتوحة على العالم الآخر ، و ربما هو نوع من المقابلة بين البيئة التي خلفها المسلمون في الصحراء ، و ما وجدوه امامهم من أماكن جديدة عذراء لها هذه الوصاف التزيينية التي تعكس الخصب و النماء .

و تعكس أيضا ترف تلك الطبقات من الشعوب ، و يبدو أن التفصيل في وصف الكثير من الأماكن التي ينتمي إليها الكفار كأنها جنة على الأرض ، يؤكد أنّ الجمال الطبيعي يتركز فيها ، و حيث يزدوج معه بناء الحصون المنيعة ، و القلاع المحروسة ، و السجون ، ... أي أن يد الصناعة قد مستها بما يمكن أنّ يضمن لأهلها الحماية ، و هذا دون دار الإسلام حيث مركز الخلافة و حيث بقيت ببساطتها و انفتاحها على الآخر .

و إنّ كل هذا يمهد للأحداث التالية و ردود الفعل التي تصدر عن أهل هذا المكان الموصوف من خلال تمسكهم به بقوة بأس و بذل كل ما يقتضيه الأمر لحمايته ، خاصة إذا لم يتم الصلح بين الطرفين ،فامتلاكه يكون غالبا إمّا بالسيف ، أو بالحيلة .

واستلام المكان يعني أنّه أمام وضع جديد بكل ما يحمله من دين، وعلاقات، وقوانين ...

3- الأماكن العجائبية :

إنّ الحديث عن هذا النوع من الأماكن في هذه المحكيات يتعلق بالزاوية التي يمكن أن ننظر بها إلى عجائبية المكان فإمّا أن " ننطلق من طبيعة تركيبها المخالف للفضاءات المرجعية أو الواقعية الأليفة ، و إلاّ فالعديد من هذه الفضاءات له طابع واقعي أو مرجعي ما " (34) .

و من ثمّ يمكن أن تتحدد عجائبية المكان حتّى من الكائنات التي تسكنه .

و من أمثلة الأماكن العجائبية ما نجده في " فتوح إفريقية " من خلال تلك البئر العجيبة التي سميت بـ (مسكن الجن) ، و هذا لارتباطه بهذه الكائنات العجيبة المتمثلة في الجن ، و ما لها من خصائص تدعو للدهشة و التردد إضافة إلى عناصر الغموض و الرهبة ، لأنها تتجاوز الطبيعي فهو صعب الدخول ، و موقعه منفردا وسط الخراب .

و حيث لم يكن هذا المكان المغلق بطبيعته و بمن يعيش فيه إلاّ حلا للمسلمين للتمكن من اختراق المدينة المنيعة ، و بالتالي يعتبر مسرحا لتطور الأحداث في هذه الغزوة :

" أمرت شعاع الشمس أن يؤتى إليها بحبال ثم سارت و ساروا معها إلى أنوقفت بمكان خلف السور و قالت لهم أحفروا ههنا فحفروا حتى كشفوا عن بئر من الرخام الأبيض فقال رافع أنا أبدأ بالنزول (قال) فربطوه بحبل و أنزلوه فلما وصل إلى قعر البئر انبعثت عليه روايح كريهة و شررنا و دخان فصاح بأصحابه و قال ارفعوني و ما رفعوه حتى غشى عليه فلما أفاق قالوا له ماذا رأيت فحكى لهم قصته و قال هيهات أن يقدر أحد على السلوك منها فلما سمع عبد الله بن جعفر منه ذلك لبس آلة حربه و نزل و لما وصل إلى قعر البئر أطق عليه الشرر و الدخان و الروايح الكريهة فسل سيفه و زجر الجن بأسماء الله و قال يا معشر الجن الساكنة بهذا المكان أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما سمعت الجن كلامه انهزمت بين يديه " [35].

فقد أتت أوصاف هذا المكان ملتهبة عميقة ، من خلال محاولة القبض على جزئياتها غير المرئية في ذلك المكان المولد للتعجب .

ثمّ إنّ هذه الجزئيات غير واضحة و المعلومات حولها شحيحة إذا حاولنا ربطها بـ (البئر المعطلة) التي تكلم بها القرآن الكريم في الآية 45 من سورة الحج :

" فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ " .

و هي التي ورد ذكرها أيضا في السيرة الشعبية (سيف بن ذي يزن) حيث ضمنها الراوي قصة خيالية باعتبارها مكانا للعبادة من طرف الملك و من والاه :

" إنّ تلك المدينة لها ملك يقال له أصباروت بن نمير و له وزير ، يقال له مصعب بن الريان ، و هم يعبدون تلك البئر دون الملك القدير ، و إذا مات أحدهم أتوا إلى البئر ، فيقفوا على فمها و ينادون بإلاههم : خذ عبدك ، ثم إنهم ينزلون في تلك البئر ، فيطلع الميت في ثاني يوم إلى حافته

، و يأتوا له أهله و أهل البلد و يحاسبهم بما كان له . و ما كان عليه قبل موته ... ، و إذا أذنب عندهم احد يأتون به إلى البئر ، فإن كان معه الحق يتشكل بالورد و الرياحين ، و إن كان هو المفترى عليه أُحرق بالنار من أذياله " (36).

و لكن الأمر هنا يختلف ، فيمكن أن يكون الراوي عارف بهذه الأمكنة التي تحيط بسياج من الأوصاف العجيبة و الخيالية و الخارقة للمألوف ، فاستثمرها هنا برؤيته الخاصة ، حيث أبقى على بعض خصائصها ، كوجود النار و الدخان و الروائح الكريهة ، ثّم جعلها مسارا يتتبعه البطل حتّى يستطيع اختراق أسوار المدينة الحصينة حيث إنّ " لها سبعة أسوار كل سور عليه حراس لا يحصى لهم عدد يرمون بالنبل كلهم في وقت واحد و ان فتحها لا ينال إلا بعد مشقة عظيمة و ان ملكها أطغى الملوك " (37) .

و نجد عبد الله بن جعفر أن ينهي أمر ساكني هذه البئر و بالتالي سهل عليه اختراق المدينة ، مثلما أنهى الملك سيف بن ذي يزن أمر الشياطين التي كانت تفتن الناس لعبادة البئر ، و يدخل أهل المدينة دين الإسلام .

و إنّ المغازي ترسم في الكثير من الأحيان قصور المدن التي ارتحل المسلمون إليها ، بطريقة تشي بسعة خيال الراوي ، ممّا يعطيها صفة المكان العجائبي – و هذا إذا تجاوزنا ماكنا ذكرناه عن حصانة المكان و جماله في المكان التخييلي – فهذا قصر مريم في ذكر فتوح آمد ، التي صارت ملكة بعد أن قتلت بالسم الملك و أخيه و زوجها ، و اعتلت الملك ، " و بنت بيعة لم ير ببلاد الروم مثلها و فرشت أرضها بالفصوص و الرخام الملون و زخرفت الحيطان بالذهب و الفضة و علقت فيها ستور الديباج المذهب " (38).

و هذه مدينة العقبان التي يفوق جمالها كل وصف : " فلم يجدوا غير الأبواب التي كانت مغلقة و هي خمسة و ثلاثون بابا و لهذه المدينة عشرة أسوار عريضة يسع كل منها صفا به عشرون رجلا و بين كل منها مسافة غير قصيرة و بداخلها قصور مشيدة نحو الخمسين مختلفة الشكل و فيها من الأشجار و الثمار و الأطيار ما يفوق الوصف و في كل قصر مائة جارية من البنات الأبكار [..] و كانت هذه الأرض يسكنها العقبان و هي أرض زاهرة خصبة و كان يملكها ملك عظيم [...] فاتفق ذات يوم أن خرج للصيد و القنص [...] فلما وصل إليها وجد فيها أنهارا جارية و أشجارا متكاثفة تغرد فوقها الأطيار و تسبح لله الواحد القهار و ليس بها سكان غير العقبان دون بني

الإنسان فقال لرجال دولته اني وددت أن أبني في هذا المكان مدينة أجعلها قاعدة مملكتي " [39]. فقبلوا و شرعوا في بناء المدينة الذي استغرق خمس عشرة سنة وسماها العقبان ، و صارت من المدن الشهيرة العظيمة .

فعجائبية هذه الأمكنة تتأتى من خلال وصف الراوي لها ، فهي جنة على الأرض، بل نجدها أشبه ببلاد وقصور إرم ذات العماد، ثم إنّ الوصف المغرق في الغرابة المفرطة، من خلال ذكر دقيق للتفاصيل، ولمن سكنها أول مرة، يمكن أن يهدم الهندسة المألوفة، لتبنى على أنقاضها هندسة أخرى تتصف بكل غريب، "وتحقق الاختلاف على الفضاء المألوف ، والمتعارف عليه ، بخلق تعددية في جغرافيا الأشياء والكيانات "[40].

و إنّ مؤشرات هذا المكان تحيل إلى انغلاقه و صعوبة و لوجه و بالتالي فتحه ، و من ثمّ يتحول المكان إلى حاجب يفصل بين الداخل و الخارج ، و يجتهد الراوي في تصوير لقطات حيادية في منطقة الخارج (خارج الحصون حيث يضرب جيش المسلمين حصاره باحثا عن منفذ للمكان ، و حيث ساحة المعركة ...) . فتنتقل كاميرا الراوي إلى مكان وجود الأبطال الباحثين عن سبيل لاختراق هذا المكان. وربما يكون لربط علاقة بنحو من الأنحاء بشخصية من الداخل من الوسائل الهامة لفعل الاختراق.

تتأتى عجائبية المكان في كثير من النماذج الواردة في المغازي من ارتباطه بتلك الكائنات العجيبة التي كانت تسكنه مثل ذلك الجماد (الصنم) الذي يتكلم و يفهم ، على خلفية وجود الجن و الشياطين :

" ولما دخل الأبلق هذا القصر تعجب من حسنه و غرائب صنعه و كان فيه أصنام كثيرة منها صنم كبير فلما دخل مكانه سجد له من دون الله و قال أيها الملك الأعظم قد جئناك لتنصرنا على العرب و لم يزل ساجدا حتى كلمه الشيطان من جوف الصنم بعد ساعة و قال اني ناصرك عليهم فعند ذلك رفع رأسه و خرج فرحا شديدا " [41] .

ونجد التعامل مع مثل هذا المكان ، حيث يكون الصنم المعبود في عدة مواضع من فتوح إفريقية فتلجأ إليه الشخصية و يجيب بقبول المساعدة ، و بذلك يساهم هذا المكان ، مثله مثل البئر في تطوير العقدة ، من خلال الحركة التي تؤدي إلى الانتقال و تغير الأمكنة بما يساعد على سير الأحداث .

ثمّ إنّ وصف قصور و مدن إفريقية خاصة و حتى في بعض فتوح الشام بأوصاف خيالية تتقاطع معها الكثير من العجائبية و إسناد ملكيتها لملوك غالبا عن لم أقل في كل مغازي إفريقية ما اتسمت أسماؤهم بالغرابة من حيث اللفظ (مثل : ترشيش ، حيدرة ، ...) إلى جانب البئر و الصنم الذي يوضع في مكان خاص به ... ، يؤكد أنّ " الأماكن المغلقة أكثر ملاءمة لانبجاس الظواهر ، و الصور العجائبية ، بدلا من تلك المفتوحة التي يمكن أن تعدّ مرتعا للعجيب الرائق الذي لا يثير الرعب " (42).

و إنّ عجائبية المكان " يمكن الإحساس بها منذ الوهلة الأولى لدخول البطل فيه ، فهي تنطلق من السمات التي تلحق بالشخصية عند الدخول فيه ، فتيه البطل مثلا أو شعوره بالقلق ما كان ليتم لولا أنّ المكان كان عجيبا " (43).

و إنّه على وحشة المكان و إمكانية إثارته للدهشة و التردد بل و الخوف أن يكون مكانا ينفتح على شعور آخر بأن يثير الراحة و الأمان :

" فلما نظرت المسلمون [هكذا] إلى وحشة ذلك الوادي و وعورة مسلكه قالوا يا سعيد أنا نظن أنّك أخطأت الطريق وسلكت بنا غير طريقنا فأرحنا في هذا الوادي قليلا فقد أضربنا المسير قال فأجبتهم إلى ذلك ، و كان في الوادي عين ماء غزيرة فنزل المسلمون عليها فشربوا و سقوا خيلهم و أبلهم ورعت الخيل و الجمال ورق الشجر و نام أكثر الناس و بعضهم يصلي على محمد . قال سعيد بن عامر و كنت جلست في آخر الناس أحرسهم ، و أنا أتلو القرآن الكريم [...] و أنا قلق سمعت هاتفا يهتف بي عن يمين الوادي ، و هو يقول :

يا عصبة الهادي إلى الرشاد	لا تفزعوا من وعر هذا الوادي
ما فيه من جن و لا معادي	ستعلمون معشر العباد
لطف الذي يرفق بالأولاد	و يطرح الرحمة في الأكباد
سيصنع الله بكم رشاد	و تغنموا المال مع الأولاد

[...] فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادي و حققت تلك الأرض و الجبل ، و إذا به جبل الرقيم ، فرفعت صوتي بالتكبير ، و قلت الله اكبر و كبرت المسلمون لتكبيري ، [...] فقلت وصلنا إلى بلاد الشام ، و هذا جبل الرقيم ، [...] فحدثتهم بحديث الرقيم ، قال سعيد فعجبوا من ذلك . ثم أقبلت بهم إلى الغار فصلوا فيه " (44) .

فهذا المكان تزول عنه كل دهشة أو تردد ، عندما عرفت حقيقته ، و هو مكان رمزي بل و مقدس ، قد عاش فيه بشر منذ زمن بعيد للحرية و للهروب أي بحثا عن المكان (عن المأوى) .

ويمكن أن ننظر إليه من زاوية أنه يمثل مأوى للهامشيين (الفتية الذين أووا إليه) الذين نسب وسمي هذا المكان باسمهم (أهل الرقيم / أهل الكهف) ورأوا أنّ خلاصهم في هذا الهامش (الكهف / الجبل) .

وإنّ للمكان حكاياته العجيبة (الأسطورية) التي تستمر باستمرار إيمان الناس بها ، فهذا (النيل) قد دأب أهله على اتباع سنة إذا أبطأ عليهم الوفاء ، فيأخذون جارية من أحسن الجواري و يزينونها بأحسن زينة ، ثم يرمونها في البحر فيأتي الماء و يفي النيل ، و هذا هو (كتاب النيل)، وتعرف هذه الأسطورة بـ (أسطورة عروس النيل) ، و قد تداخلت فيها الرواسب الفرعونية و القبطية و المعتقدات الإسلامية، وإذ هي تتعلق بنشأة مصر و نهرها المقدس ، فقد جسدها الراوي الشعبي في سيرة سيف بن ذي يزن — الذي ينسب إليه اكتشاف منابع النيل– انطلاقا من إعادة إنتاج الموروث الفولكلوري المتعلق بمصر ونيلها، و المعلومات الشارحة لكيفية الوصول إلى منابعه و الشائعة في التراث الشفاهي و حتى عند الرواة و المؤرخين القدماء [45] .

وإنه سنة فتح مصر توقف عن الوفاء ، إذ عدَّ أهل مصر ليالي الوفاء ، و يئسوا من ذلك ، " فمضى عمرو إلى النيل و خاطبه ورمى فيه كتاب عمر بن الخطاب (رضي) . قال فلما رماه فيه هاج البحر و زاد فوق الحدِّ ببركة عمر بن الخطاب . و انقطعت عن أهل مصر تلك السنة السيئة ببركة عمر (رضي) "[46] .

فيبدو أنّ فكرة وادي النيل و المعلومات المقدمة عنه اتت من خيال الرواة ، الذين قدموا تفسيرا لصعود و نزول مائه ، فشاعت الحكايات المتصلة بهذا المكان ، رغم انّها عجيبة و خارقة للمألوف .

ولكن يمكن أن تسد حاجة الإنسان إلى معرفة أسباب التغيرات التي يمكن أن تحدث في المكان ، و تقديم تفسير للحل الذي وُضع لمشكلة عدم الوفاء ، و ذلك بمنطق العصر الذي وضعت فيه .

وهذه الحكايات العجيبة عن المكان أصبحت مادة خصبة للراوي ، ليوظفها في هذا النص ، و يضيف إليها الكثير من مخيلته في إطار محدد متعلق بتدخل شخصية مسلمة لتكون سببا في وفاء النيل و ارتفاع منسوب مياهه .

و يظهر بذلك التنظيم الجديد لحكاية (كتاب) النيل وكيف ألبسها الراوي ثوبا فنيا مغايرا تماما ، و لكنه لا يخلو من خيال و من مخالفة للحقيقة ، بل إنه بنى أسطورة جديدة و وظفها هنا لمثل هذا المكان رغم أنّه مرجعي ، و هنا تتوضح فكرة زاوية الرؤية التي يُنظر منها إلى عجائبية المكان .

خاتمة:

لعب المكان دورا هاما في بناء دلالات المغازي، خاصة إذا كان هناك ترسيم لحدوده و جزئياته، حيث ينقل الحكي صورة عنه بألفاظ وصيغ وحالات وصور ورؤى خيالية، تضمن توصيل فكرة المبدع (الراوي) إلى المتلقي، وتدفع إلى تتبع كل ما يجري من أحداث، وهي ترد الحدث تلو الآخر.

وهذا ما يتجلى في المغازي – فضلا عن غيرها من أنواع السرد– التي تضمن حتمية الانتقال من مكان إلى آخر، حيث تختلف هذه الأماكن المقصودة شكلا و حجما و مساحة، و تلتقي فيها أعدادا مختلفة من البشر الذين لهم ممارساتهم الاجتماعية و الثقافية المغايرة، مما يستدعي طريقة ما للتعامل معهم من طرف قادة جيوش المسلمين، و بالتالي إلحاق هذه الأمكنة — بنحو من الأنحاء– بحيز الأمة الإسلامية.

وقد كان لاستعمال الأمكنة استدعاء لتاريخها مهما كان حقيقيا مجسدا في الواقع الجغرافي، أو خياليا متعينا في الواقع النصي، مما ساعد على تنويع في الزمن السردي، و الانتقال من زمن الغزوة إلى زمن الماضي حيث يصف الراوي الأمكنة و يعرف بها وبشخوصها التي تنتمي إليها و ساهمت في تشكلها، ومنه يكون الرجوع مرة أخرى إلى زمن الغزوة ليتم فتح هذه الأمكنة.

ثم إنّ المكان يعتبر عاملا هاما في إكساب الحدث معقولية وقابلية للوقوع، مهما كانت هذه الأحداث خيالية أو عجائبية، باعتباره يقوم على احتضانها وتحديد أبعادها.

الإحالات:

(1) محمد يوسف نجم : فن القصة ، ط7 ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1979 ، ص 180 .

(2) جوادي هنية : صورة المكان و دلالته في روايات و اسيني الأعراج ، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآداب و اللغة العربية ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، 2012 – 2013 ، ص 80 .

(3) ينظر : غاستون باشلار : جماليات المكان ، ترجمة : غالب هلسا ، ط3 ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2006 ، ص 31 .

(4) يوري لوتمان : مشكلة المكان الفني ، ترجمة سيزا قاسم ، ط2 ، عيون المقالات ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1988 ، ص 65 .

(5) جوادي هنية : صورة المكان و دلالته في روايات و اسيني الأعراج ، ص 63 .

(6) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1990 ، ص 32 .

(7) أحمد زيادمحبك : من التراث الشعبي – دراسة تحليلية للحكاية الشعبية ، ط1 ، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2005 ، ص : 140 – 141 .

(8) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ، ص 27 .

(9) المرجع السابق ، ص 144 .

(10) محمد بن عمر الواقدي : فتوح الشام ، ج2 ، د ط ، دار الجيل للنشر و التوزيع و الطباعة ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ص 153 .

(11) محمد بن عمر الواقدي : فتوح إفريقية ، ج1 ، د ط ، مكتبة و مطبعة المنار ، تونس ، 1966 ، ص 120 .

(12) سعيد يقطين : قال الراوي – البنيات الحكائية في السيرة الشعبية ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، 1997 ، ص : 243 – 244 .

(13) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج1 ، ص 4 .

(14) الواقدي : فتوح الشام ، ج2 ، ص 154 .

(15) ينظر : ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، ج1 ، ط2 ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1995 ، ص 76 .

(16) الواقدي ، فتوح الشام ، ج2 ، ص : 154 – 155 .

(17) المصدر نفسه ، ص 183 .

(18) المصدر السابق ، ص 12 .

(19) المصدر نفسه ، ص 153 .

(20) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج1 ، ص 42 .

(21) الواقدي : فتوح الشام ، ص : 153 – 154 .

(22) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج1 ، ص : 90 – 91 .

(23) الواقدي : فتوح الشام ، ج2 ، ص 75 .

(24) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج2 ، ص 20 .

(25) الواقدي : فتوح الشام ، ج2 ، ص 82 .

(26) المصدر نفسه ، ص 86 .

(27) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج1 ، ص 44 .

(28) المصدر نفسه ، ج2 ، ص 98 .

(29) سعيد يقطين : قال الراوي ، ص 246 .

(30) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج1 ، ص 4 .

(31) حسين علام : العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد ، ط1 ، منشورات الاختلاف – الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر– لبنان ، 2010 ، ص 161 .

(32) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج2 ، ص 21 .

(33) المصدر السابق ، ص : 21 – 22 .

(34) سعيد يقطين : قال الراوي ، ص 253 .

(35) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج2 ، ص 128 .

(36) سيرة سيف بن ذي يزن ، ج4 ، د ط ، مكتبة الجمهورية العربية ، القاهرة ، مصر ، د ت ، ص 144 .

(37) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج2 ، ص 99 .

(38) الواقدي : فتوح الشام ، ج2 ، ص 155 .

(39) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج2 ، ص : 57 – 58 .

(40) شعيب حليفي : شعرية الراوية الفانتاستيكية ، ط1 ، منشورات الاختلاف – الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر – لبنان ، 2009 ، ص 192 .

(41) الواقدي : فتوح إفريقية ، ج2 ، ص : 121 – 122 .

(42) حسين علام : العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد ، ص 161 .

(43) نورة العنزي : العجائبي في الرواية العربية ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 2011 ، ص 142 .

(44) الواقدي : فتوح الشام ، ج1 ، ص : 181 – 182 .

(45) ينظر : محمد رجب النجار : الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2006، ص 92 .

(46) الواقدي : فتوح الشام ، ج2 ، ص 70 .